من أنا ؟

الشيخ
محمد حسان

دار ابن رجب

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٢٦هـ - ٢٠٠٦م

دار ابن رجب
طبع. نشر. توزيع

فارسكور : تليفاكس ٠٠٢٠٥٧٤٤١٥٥٠ جوال : ٠١٢٢٣٦٨٠٠٢
المنصورة : شارع جمال الدين الأفغاني هاتف : ٠٠٢٠٥٠٢٣١٢٠٦٨

مـن أنا ؟!!

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله .

من أنا ؟!! والجواب بالتفصيل لأهمية الجواب على هذا السؤال أؤصله بمقدمة

.

مهمة جدًّا بين يدي الجواب ، وأستهل هذه المقدمة بهذه الكلمات :

أقول : إن كل جهل مهما عظمت نتائجه قد يغفر ، إلا أن يجهل الإنسان خالقه سبحانه وتعالى ، وسر وجوده ، والغاية التي من أجلها خلق ، فالجهل في جانب العقيدة لا يغتفر ، وهو أن يجهل الإنسان خالقه ، وأن يجهل الإنسان الغاية التي من أجلها خُلق ، فأكبر عار على هذا الإنسان الذي آتاه الله ﷻ العقل والإرادة وميزه على

سائر المخلوقات في الكون أكبر عار عليه أن يعيش غافلًا عن الله ، فيأكل ويتمتع كما تأكل الأنعام ، لا يفكر في خالق ، ولا يبحث عن غاية ، ولا عن الوظيفة الذي من أجلها خلق ولها ابتعث ، ولا يبحث عن طبيعة دوره في هذه الأرض ، حتى يأتيه الأجل والموت ، دون أن يستعد لهذا اليوم فيجني ثمرة الغفلة والجهل والانحراف في عمره الطويل أو القصير ، وحينئذ يندم يوم لا ينفع الندم ، وهو بين

يدي الله تبارك وتعالى يرى نفسه أخس من البهائم والحيوانات ، فإن البهائم والحيوانات كلها عرفت ربها وسجدت له ، قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾ [الحج : ١٨] ، وقال تعالى في شأن هذا الصنف الذي هو أخس من البهائم ، الذي

يجهل خالقه ، ويجهل غاية وجوده وسر ابتعاثه في هذه الأرض قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٧٩] تدبر القول بعد ذلك ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾ .

هذا الصنف الخبيث الذي يقول قائله :

جئت لا أعلم من أين ؟ ولكني أتيت .. ولقد أبصرت قدامي طريقًا فمشيت وسأمضي في طريقي شئت هذا أم أبيت .. كيف جئت ؟ كيف أبصرت طريقي ؟ لست أدري !! بهيمة ، نعم بهيمة ، لا يعرف خالق ، ولا يعرف غاية وسر وجوده في هذه الأرض كما قال الله ﷻ ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَـٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ فأي جهل أبشع وأفظع

من أن يجهل الإنسان الذي يتعالى بعقله ، ويتعالى بإبداعاته المادية ، أي جهل هو أجهل من أن يجهل ربه وخالقه الذي خلقه وبعثه وأوجده - سبحانه وتعالى - هذا هو الجهل الذي لا يغتفر .

لهذا كان لزامًا على كل إنسان عاقل أن يبادر ويسأل نفسه هذا السؤال : لماذا خُلقت ؟ ، وما هي الغاية التي من أجلها خلقت ؟ وحتمًا قبل طرح هذين السؤالين ، لا بد وأن تطرح على نفسك من أنا ؟ من

أوجدني ؟ من خلقني ؟ تسأل نفسك أيضًا إلى أين ؟ ما هو المصير ؟ وإلى أين أسير ؟ لابد أن تطرح على نفسك هذه الأسئلة ؛ لتتعرف على الغاية التي من أجلها خُلقت ، فإن عرفت من خالقك ، وعرفت الغاية التي من أجلها خلقت ، حينئذٍ ستعرف من أنت ، وستعرف مصيرك ومسيرك ، فلابد من الإجابة على هذه الأسئلة ، من أين ؟ وإلى أين ؟ ولماذا ؟ أي : ولماذا خلقت ؟.

هذه هي الأسئلة التي صاحبت الإنسان

في كل فترات حياته ، وفي كل مكان وجد فيه ، وهي تطلب من أي إنسان الجواب الشافي لها في كل مرحلة من مراحل العمر ، وفي كل مكان على وجه البسيطة من يوم خلق الله ﷻ آدم عليه السلام من أين جئت أنا ؟ وإلى أين أسير ؟ ما هو مصيري ؟ وما هو مسيري الذي أتجه فيه ؟ وما هي الغاية التي من أجلها خلقت ، ولأجلها بعثت ؟ ولا بد من هذه المقدمة قبل أن أشرع في الحديث عن العبادة تأصيلاً لغويًّا واصطلاحيًّا .

أقول : أما السؤال الأول : **من أنا** ؟ أو من أين أنا ؟ فهو عقدة العقد عند الماديين الملحدين في كل زمان ومكان أن يجيبوا أو أن يطرحوا على أنفسهم هذا السؤال ، من أين ؟ من الذي خلقني ؟ ومن الذي أوجدني ؟ هؤلاء الذين لا يؤمنون إلا بما تقع عليه الحواس أي : إلا بما تراه الأعين فهو يؤمن بهذا المصباح الذي يراه بعينه منيرًا مضيئًا ، لكنه في الوقت ذاته يغض الطرف عن تيار كهربائي لا يراه بعينه

الذي هو سر إضاءة هذا المصباح !! فهو مادي أعمى لا يؤمن إلا بما تراه عينه حتى ولو كذبه عقله ، هؤلاء يتخذون منطق العقل في رؤوسهم - زعموا - دليلًا على الوصول إلى الحق والحقيقة ، ويصرون في عمى عجيب على أن هذا الكون بما فيه ومن فيه وُجِدَ وحده ، وكل ما في هذا الكون من إحكام وترتيب إنما هو صنع المصادفة العمياء !!

أما الذين يستجيبون لنداء الفطرة في كل

زمان ومكان ، فهؤلاء يقرون حتمًا بأن لهذا الكون إله وربا حكيمًا عظيمًا جَلَّ جَلَالُهُ ، تتجه قلوبهم إليه - سبحانه وتعالى - بالتعظيم ، والرجاء ، والخشية ، والتفويض ، والتوكل ، والإنابة والعبادة بصفة عامة ، يشعرون بخالق هذا الكون ويتجهون إليه سبحانه بفطرهم السليمة النقية التي لم تعكرها الماديات والشبهات والشهوات ، قال تعالى :
﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ

ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم : ٣٠]

لكن هذا الصوت - أعني صوت الفطرة - قد يخفت في قلب وعقل إنسان ، أو قد يكبت هذا الصوت صاحبه عمدًا ، نعم عمدًا عن كبر ، فالمشركون ما أنكروا هذه الحقيقة ، ما أنكروا أن **الله** ﷻ هو الخالق بل كفروا به - سبحانه وتعالى - كبرًا وعنادًا ، ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [الصافات : ٣٥]

قال تعالى : ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [النمل : ١٤]

فهؤلاء يقرون بهذه الحقيقة لكنهم قد يرفضونها كبرًا وعنادًا - وركزوا معي جيدًا ، فهذا كلام مهم جدًا - فالفطرة قد تخفت في قلب وعقل إنسان عن قصد ، وعن عمد من صاحبه ، فإذا نزلت بهذا الإنسان نفسه أزمة أو أحداث مريرة أو مشكلة واهتز هذا الإنسان أمام هذه

الأزمة ، وهذه الشدة وخاب أمله في كل الناس من حوله تراه ينطلق مرة أخرى مستجيبًا لهذا الصوت الذي يعلو في أعماقه ألا وهو صوت الفطرة فيتجه مرة أخرى رغم أنفه لله - جَلَّ وَعَلَا -.

تدبر معي هذا الحوار النفيس الجميل ، فلقد سأل رجل الإمام جعفر الصادق ﷺ عن الله ، فقال له جعفر : ألم تركب البحر ؟! فقال : بلى . فقال جعفر : فهل حدث لك مرة أن هاجت بكم ريح عاصفة ؟! قال :

نعم . قال جعفر : وانقطع أملك من الملاحين ووسائل النجاة ؟ قال : نعم ، قال : فهل خطر في بالك وانقدح في نفسك أن هناك من يستطيع أن ينجيك إن شاء ؟! قال : نعم قال : هذا هو الله - سبحانه وتعالى -.

وهذه الحقيقة تثبتها آيات كثيرة جدًّا في القرآن ، تدبر معي قول الله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ﴾[الزمر : ٨] وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا

عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾

[يونس : ١٢]

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [لقمان : ٣٢]

وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ... ﴾ [الإسراء : ٦٧] ولا حول ولا قوة إلا بالله .. هذه طبيعة الإنسان !! قال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ

﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار : ٦ – ٨] فإذا كان منطق الفطرة يهدي إلى الله تعالى ، والفطرة ليست وجدانًا خالصًا ، بل وليست عقلًا خالصًا ، ولكنها مزيج بين الوجدان – أي القلب – والعقل .

أقول مع ذلك ، فإن العقل السوي فقط يرى الإيمان بالله تعالى ضرورة لا يستطيع الإنسان على الإطلاق أن يعيش بدونها ، فإن العقل بغير تعلم ، وبغير اكتساب

يؤمن حتمًا بقانون السببية ، هذه الورقة في يدي الآن تهتز لسبب ، هذا هو قانون السببية ، لأنني أحركها ، فالعقل بدون تعلم وبدون اكتساب يؤمن بقانون السببية ، يؤمن بهذا القانون إيمانه بكل البدائيات والأولويات التي لا تحتاج إلى دليل ، يعني لا ينبغي لعاقل إذا رأى الشمس ساطعة في أفق السماء أن يقول : ما هو الدليل على أن الشمس طالعة ؟ بل يجب أن يسأل : ما هو الدليل على وجود عقله في رأسه ؟

كهذا الذي دخل يومًا على طلابه وأراد بهذا القانون أن يثبت الضد ، فقال لهم : يا أولاد هل ترون أستاذكم ؟ قالوا : نعم ، فقال : هل ترون السبورة التي أكتب لكم عليها ؟ قالوا : نعم ، قال : هل ترون الكرسي الذي أجلس عليه ؟ قالوا : نعم ، وتدرج بهذه الأسئلة إلى أن قال لهم : هل ترون الله ؟ قالوا : لا ، قال : إذًا غير موجود !! فقيض الله تلميذًا صغيرًا من تلاميذه ، فاستأذن أستاذه ووقف إلى

جواره ، واتجه التلميذ إلى زملائه وقال : يا إخواني هل ترون عقل الأستاذ ؟ قالوا : لا ، قال : إذًا غير موجود !!

فالعقل بدون تعلم وبدون اكتساب يؤمن بقانون السببية إيمانه بالأمور الأولية الابتدائية التي لا تحتاج إلى دليل على وجودها ، فلا يقبل أبدًا العقل السوي فعلًا بغير فاعل أبدًا ، ولا يقبل العقل السوي صنعًا بغير صانع .

وهذا القانون هو الذي عبر عنه الأعرابي

الأول ببساطة شديدة حيث لم يتخـرج في جامعـة من الجامعات ، وإن شئت فقل ما تخرج إلا من جامعة الفطرة ، حينما سئل عن الله ﷻ فقال بعقله الذي آمن بقانون السببية البدائي هذا فقال : البعرة تدل على البعير ، وأثر السير يدل على المسير ، سماء ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج ، وبحار ذات أمواج ، أفلا يدل كل ذلك على اللطيف الخبير ؟.

هـذا هو القانـون ببساطة شديدة ، هـذا

هو الذي عـبر عنه الإمام أحمد – إمام أهل السنة طيب الله ثراه – حينما أمسك البيضة يومًا ، وقال : هذا حصن حصين أملس ليس له باب ، وليس له منفذ ، كالفضة البيضـاء ، وباطنه كالذهب الأبريز ، وبينما هو كذلك إذ انصدع جداره ، وخرج منه حيوان سميع بصير ، ذو شكل حسن ، وصوت مليح !!

هذا هو القانون الذي عبر عنه الإمام الشافعي حينما أمسك ورقة التوت يومًا

فقال : ورقة التوت تأكلها الغزالة فتعطينا مسكًا ، وتأكلها الشاة فتعطينا لبنًا ، وتأكلها دودة القز فتعطينا حريرًا !!

إن الطعام واحد ، ولو كانت الأمور بالمصادفة العمياء ، لكانت عصارة الطعام للطعام الواحد واحدة ، ولكنها كانت في الشاة لبنًا ، وكانت في الغزالة مسكًا ، وكانت في الدودة حريرًا ، إنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور .

يقول عالم الطبيعة المشهور إسحاق نيوتن: لا تَشُكُّوا في الخالق فإنه مما لا يعقل أن تكون المصادفات وحدها هي قاعدة هذا الوجود !!

ليس ممكنًا أبدًا أن تكون الصدفة هي التي خلقت هذا الوجود بهذا الإبداع ، والجـلال ، والجمال .

والله العظيم لو نظـر عالم من هـؤلاء العلماء الذين لا يؤمنون بالله ، والله لو نظر إلى كوز الذرة لَوَحّد الله وعبده ، هذه

الحبات اللؤلؤية البيضاء كيف رُصَّت على القولحة بهذا الجمال والإتقان والتناسق والإبداع ، والله لو أنصف لوحد الله وعبده .

يقول سبنسر نقلًا عن عالم آخر يقال له هرشل : إن العالم الذي يرى قطرة الماء فيعلم أنها تتركب من الأكسجين والهيدروجين بنسبة خاصة « ذرة أكسجين ، وذرتين هيدروجين » ، بحيث لو اختلفت هذه النسبة لكانت شيئًا آخر غير الماء يعتقد في عظمة الخالق ، وقدرته وحكمته وعلمه

الواسع بصورة هي أقوى وأعظم من هذا الذي لا يرى في قطرة الماء إلا أنها نقطة ماء فحسب !!

فالعالم الذي يدرك الحقائق ينظر إلى هذه الآية فيزداد إيمانًا بالله سبحانه وتعالى فيختلف عن إيمان العبد الذي ينظر إلى قطرة الماء على أنها قطرة ماء .

يقول فرنسيس بيكون : إن القليل من الفلسفة يميل بعقل الإنسان إلى الإلحاد .

فهذه الفلسفة طريق للإلحاد ، والعجيب

أنهم كانوا يدرسون لنا في الثانوية قاعدة تقول : « أنا أشك إذًا أنا موجود » ولو صدقوا لقالوا : « أنا أشك إذًا أنا دبوس » لكن ما هي علاقة الشك بالوجود ؟ أي أنه بدأ حياته بالشك ابتداءً ، والشك لا يمكن أبدًا أن يوصل إلى حقيقة مطلقة أبدًا ، بل إن عصفت رياح الشكوك بالقلوب ضل الخلق ، ولذلك ربنا - سبحانه وتعالى - يصف المؤمنين بأن رياح الشك لا تهب ولا تعصف بقلوبهم أبدًا ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ

ﭐلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ ﴾ [الحجرات : ١٥]أي : لم يتشككوا إن من يبدأ بالشك لكي يصل إلى الحقيقة : هذا إضلال لعقول أبنائنا وأولادنا ، وكم من الناس من اقتنع بهذه النظريات الفلسفية الباهتة الفارغة ، التي يغني بطلانها عن إبطالها ، لكننا وبكل أسف كنا نسلم القلوب والعقول لهؤلاء على أنهم لا ينطقون عن الهوى ، فإذا جاء القول من عالم غربي سلمنا العقل والقلب وكأنه لا يخطئ !!

ثم جاء بعد ذلك صنف خبيث ممن ينسبون إلى الإسلام في بلاد المسلمين ضخموا ، ونفخ فيهم ليكونوا شيئًا مذكورًا وهم في الحقيقة كالطبل الأجوف ، يُسمَعُ من بعيد وباطنه من كل الخيرات خالٍ .

يقول فرنسيس بيكون : إن القليل من الفلسفة يميل بعقل الإنسان إلى الإلحاد ولكن التعمق فيها - تعمق العقل في هذه الأشياء بإنصاف - ينتهي بالعقول إلى الإيمان ، ذلك لأن عقل الإنسان قد يقف

عندما يصادفه من أسباب ثانوية مبعثرة هنا ينكر فلا يتابع السير إلى ما ورائها ، ولكنه إذا أمعن النظر شهد سلسلة الأسباب كيف تتصل حلقاتها لا يجد بدًّا من التسليم بالله سبحانه وتعالى .

هذه شهادة أولئك الذين رسخوا في علم الكون - الطبيعة والفيزياء - وأنا لا أريد أن أستطرد في أقوالهم ، وأنا لا استشهد بأقوال أهل العلم من علماء الطبيعة ، والجيولوجيا ، والفلك ، والرياضيات على

صحة وصدق قول الله وقول الرسول ﷺ
لا ، ولا أستشهد بالنظريات العلمية على
صدق كلام رب البرية وكلام سيد البشرية ،
إنما أثبت للناس ممن - وبكل أسف -
يصدقون ما يأتي من الغرب أكثر من
تصديقهم لا أقول لكتاب الله ، بل أشد من
تصديقهم لكلام الله ورسوله ، نعم هذا
صنف موجود أنا لا أبالغ ، ولا أغالي ، ولا
أجيش العواطف بكلام فارغ أجوف
ورحم الله تعالى القائل :

لِلَّـــــهِ فِي الآفَــــاقِ آيَـــــاتٌ
لَعَلَّ أَقَلَّهَـــا هُوَ مَـا إِلَيْهِ هَـدَاكَ ؟!
وَلَعَـــلَّ مَا فِــي النَّفْسِ مِـنْ آيَاتِـــهِ
عَجَـبٌ عُجَــابٌ لَـوْ تَـرَى عَيْنَـاكَ
الكَـــوْنُ مَشْـحُونٌ بِأَسْـــــرَارٍ إِذَا
حَـــاوَلْتَ تَفْسِـيرًا لَهَـــا أَعْيَـــاكَ
قُـلْ لِلطَّبِيبِ تَخَطَّفَتْــهُ يَـدُ الـرَّدَى
يَا شَـافِيَ الأَمْرَاضِ مَـنْ أَرْدَاكَ ؟!
قُـلْ لِلْمَرِيضِ نَجَـا وَعُـوفِيَ بَعْدَمَـا
عَجَـزَتْ فُنُونُ الطبِّ مَنْ عَافَاكَ ؟!

قُـلْ لِلْصَّحِيحِ مَـاتَ لَا مِـنْ عِلَـةٍ
مَـنْ يَا صَحِيحُ بِالْمَنَـايَا دَهَــاكَ ؟!
بَلْ سَائِلُ الأَعْمَى خَطَى وَسَطَ الزِّحَامِ بِلَا
اصْطِدَامٍ مَنْ يَا أَعْمَى يَقُودُ خُطَاكَ ؟!
بَلْ سَـائِلُ البَصِيرَ كَانَ يَحْـذَرُ حُـفْرَةً
فَهَوَى بِهَـا مَنْ ذَا الَّـذِي أَهْـوَاكَ ؟!
وَسَلِ الجَنِينَ يَعِيشُ مَعْزُولًا بِلَا رَاعٍ
وَمَرْعَـى مَنْ ذَا الَّــذِي يَرْعَــاكَ ؟!
وَسَلِ الوَلِيدَ بَكَـى وَأَجْهَشَ بِالبُكَاءِ
لَـدَى الـوِلَادَةِ مَا الَّـذِي أَبْكَـاكَ ؟!

وَإِذْ تَــرَى الثُّعْبَــانَ يَنْفُــثُ سُــمَّهَ
فَسَلْهُ مَنْ يَا ثُعْبَانُ بِالسُّمُومِ حَشَاكَ ؟!
وَاسْـأَلْـهُ كَيْــفَ تَعِيشُ يَا ثُعْبَــانُ
أَوْ تَحْيَـا وَهَــذَا السُّمُّ يَمْـلأُ فَـاكَ
وَاسْأَلْ بُطُونَ النَّحْلِ كَيْفَ تَقَاطَرَتْ
شَـهْدًا وَقُـلْ لِلشَّهْدِ مَنْ حَـلَّاكَ ؟!
بَلْ سَائِلِ اللَّبَنَ الْمُصَفَّى مَنْ بَيْنِ فَرْثٍ
وَدَمٍ مَــنْ ذَا الَّــذِي صَفَّــاكَ ؟!
وَإِذَا رَأَيْتَ الحَـي يَخْـرُج مِنْ حَــنَايَا
مَيِّــتٍ فَاسْـأَلْهُ مَـنْ أَحْــــيَاكَ ؟!

وَإِذَا رَأَيْتَ النَّبْتَ فِي الصَّحَرَاءِ يَرْبُو
وَحْدَهُ فَاسْأَلْهُ مَنْ أَحْيَاكَ ؟!
وَإِذَا رَأَيْتُ النَّخْلَ مَشْقُوقَ النَّوَى
فَاسْأَلْهُ مَنْ يَا نَخْلُ شَقَّ نَوَاكَ ؟!
وَإِذَا رَأَيْتَ الْبَدْرَ يَسْرِي نَاشِرًا
أَنْوَارُهُ فَاسْأَلْهُ مَنْ أَسْرَاكَ ؟!
وَإِذَ تَرى الجَبَل الأَشَمَّ مُنَاطِحًا قِمَمَ
السَّحَابِ فَسَلْهُ مَنْ أَرْسَاكَ ؟!
وَإِذَا رَأَيْتَ النَّارَ شَبَّ لَهِيبُهَا
فَاسْأَلْ لَهِيبَ النَّارِ مَنْ أَوْرَاكَ ؟!

هذا جواب على سؤالنا الأول من أنا ؟

أخلص من هذه الكلمات الدقيقة المهمة إلى هذه الحقيقة الكبيرة ، ألا وهي أن الإيمان بالله تبارك وتعالى ليس غريزة فطرية فحسب ، ولكنه ضرورة عقلية أيضًا ، وبدون هذا الإيمان سيظل هذا السؤال يحتاج إلى جواب .

ذلكم السؤال الخالد في قول الله تعالى :
﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ۝ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا

يُوقِنُونَ ﴾ [الطور: ٣٥ - ٣٦]

سيظل هذا السؤال مطروحًا يحتاج إلى جواب من هؤلاء المعاندين، **والجواب**: لا، لا يقول عاقل أنه خلق من غير شيء، والسؤال الثاني: فهل خلقوا أنفسهم، والجواب: لا، ما زعم عاقل على وجه الأرض منذ أن خلق الله ومن عليها خلق نفسه أو خلق الأرض أو خلق السماوات، فيبقى السؤال مطروحًا ويحتاج إلى جواب من كل عاقل منصف على وجه الأرض

﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴾ [الطور : ٣٥-٣٦]

فهم يقولون ببساطة شديدة في مصير هذا الإنسان بعد رحلة هذه الحياة الدنيا يقولون : إنه الفناء والعدم المطلق أن تطويه الأرض في بطنها كما طوت ملايين الحيوانات الأخرى ، وأن تعيد هذا الجسد مرة أخرى إلى عناصره الأولى فيعود ترابًا ثم تذروه الرياح ، وهكذا ..!!

هذه هي قصة الحياة عند هؤلاء الماديين

أرحام تدفع ، وأرض تبلع ، ولا جزاء ولا حساب ، ولا نعيم ولا عذاب ..!! يستوي في ذلك عند هؤلاء من أحسن غاية الإحسان ، ومن أساء غاية الإساءة ..!! يستوي في ذلك من عاش عمره للناس على حساب شهواته ، ومن عاش عمره لشهواته على حساب الناس ..!! يستوي في ذلك من ضحى بحياته في سبيل الحق ومن ضحى بالحق في سبيل حياته ..!! يستوي

في ذلك من اعتدى على حياة الآخرين في سبيل الباطل ، ومن عاش من أجل أن يرد ويدفع الباطل ..!! يستوي في ذلك من عبد الله وحده لا شريك له ، ومن عبد آلهة أخرى باطلة مدعاة ..!! يستوي في ذلك الموحدون والمشركون ..!! يستوي في ذلك الظالمون والمظلومون ..!! يستوي في ذلك المعذبون والمقهورون والمعذبون ..!! هذا ظلم .. أما المؤمن الذي مَنَّ الله عليه بالإيمان وأكرمه بالقرآن ، وبرسالة محمد ﷺ فإنه لا

يتلعثم في الجواب طرفة عين ، يعرف المؤمن مصيره ، ويعرف المؤمن مسيره ، يعرف المؤمن أين يصير ، ويعرف المؤمن المصير ، فهو يؤمن بقول الملك القدير : ﴿ فَرِيقٌ فِي ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ ﴾ شتان شتان ، بين مادي ملحد يسوي بين هذين الصنفين ممن ذكرت ، وبين مؤمن يعرف أن الله ﷻ هو العدل وهو الحق ، فالمؤمنون يعلمون أنهم خلقوا لحياة الخلود ودار البقاء وهم في هذه الحياة الدنيا إنما

يستصلحون وينقون ، ويهذبون ، ويعدون في هذه الدار إعدادًا ليؤهلهم للعيش في دار البقاء ، ليطيبهم الله تبارك وتعالى ، ليكونوا أهلًا لدار طيبة يكونوا أهلًا لسلام الملائكة عليهم إذا دخلوا جنة ربهم جَلَّ وَعَلَا وهم يقولون : ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴾ [الزمر : ٧٣]

إخوة الإسلام : إنه لعسير على العقل السوي أن يؤمن بخالق عليم عظيم حكيم أحسن هذا الكون خلقًا وصنعًا ، وقدر فيه

كل شيء تقديرًا بحكمة ، ثم يؤمن بعد كل ذلك أن سوق الحياة ستنفض بالموت وقد سرق من سرق ، ونهب من نهب ، وكفر من كفر ، وظلم من ظلم ، وأساء من أساء ، واعتدى من اعتدى ، ثم لا يقف بعد ذلك هؤلاء جميعًا بين يدي الله تعالى ليقتص للمظلوم من الظالم ، وليثيب الموحد على توحيده ، والعابد على عبادته ، لا يصدق عقل سَويّ مثل هذا أبدًا ، وما أروع كلام الله - سبحانه وتعالى - ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا

خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴾ [المؤمنون: ١١٥-١١٦]

وما أروع قول الله تعالى : ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾ [القيامة: ٣٦]

أي : مهملًا لا سؤال ولا حساب ولا ثواب ولا عقاب ، كلا .

قال تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا

تَحْكُمُونَ ﴾ [الجاثية: ٢١]

وقال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَـٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴾ [ص: ٢٧-٢٨]

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَـٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَـٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَـٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾

ومن أجمل وألطف ما قرأت في سنن ابن ماجة عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : ((**أَلاَ تُحَدِّثُونِي بِأَعَاجِيبِ مَا رَأَيتُمْ بِأَرضِ الحَبَشَةِ ؟**)) قال فتية منهم : بلى يا رسول الله ! بينا نحن جلوس ، مرت بنا عجوز من عجائز رهبانيهم تحمل على رأسها قلة من ماء فمرت بفتى منهم ، فجعل إحدى يديه بين كتفيها ، ثم دفعها ، فخرت على ركبتيها فانكسرت قلتها ، فلما ارتفعت التفتت إليه فقالت : سوف تعلم ،

يا غدر ! إذا وضع الله الكرسي ، وجمع الأولين والآخرين ، وتكلمت الأيدي والأرجل بما كانوا يكسبون ، فسوف تعلم كيف أمري وأمرك عنده غدًا . قال : يقول رسول الله ﷺ : ((**صَدَقَتْ صَدَقَتْ ، كَيْفَ يُقَدِّسُ اللهُ أُمَّةً لاَ يُؤْخَذُ لِضَعِيفِهِم مِن شَدِيدِهِمْ ؟!**))[1].

انظروا إلى فطرة هذه المرأة ، وكيف أبرزت مشهدًا من أعظم مشاهد يوم القيامة ، ألا

(١) حسن : رواه ابن ماجه رقم (٤٠١٠) في الفتن .

وهو مشهد الحساب ، ومشهد الميزان ، ومشهد الحق ، نعم إنه مشهد حق ، فلا بد من قصاص :

أَيُّهَا المَظْلُومُ صَبْرًا لَا تُهِنْ
إِنَّ عَيْنَ الله يَقْظَى لَا تَنَامْ
نَمْ قَرِير العَيْنِ وَاهْنَأْ خَاطِرًا
فَعَدْلُ الله دَائِمٌ بَيْنَ الأَنَامْ

أيها الظالمون ، فإنا متظلمون ، وإنا إلى الله شاكون ، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون ، فلا بد من وقفة يقف

فيها الجميع بين يدي الله تبارك وتعالى ليجازي الله كل واحد بعمله : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ [الزلزلة : ٧ - ٨]

قال سبحانه : ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ۝ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [الإسراء : ١٣ - ١٤]

فالمؤمن يعرف المسير ، ويعرف المصير ، يعرف أن المؤمنين إلى جنة عرضها

السماوات والأرض ، وأن الكافرين إلى نار ، نسأل الله ﷻ أن يجعلنا وإياكم من أهل الجنان ، وأن يحرمنا وإياكم على النار ، إنه ولي ذلك والقادر عليه .

والسؤال الثالث والأخير والمهم : بعدما عرف الإنسان خالقه ، وبعدما عرف الإنسان مسيره ، ومصيره يجب عليه أن يسأل نفسه هذا السؤال : لماذا خلقت ؟ ما هي الغاية التي من أجلها خلقت ؟ .

والجـواب عند المؤمنين حاضر لا يحتـاج

إلى تفكير ، فكل صانع يعلم سر صنعته ، لماذا صنعها ؟ ولماذا صنعها على نحو معين ؟ .

فالمؤمن حينما يبحث عن هذا السؤال عند خالقه يرى الجواب واضحًا ، إن سئلت لماذا خلقت ؟ سيأتي الجواب من خالقك الذي يعلم الغاية من خلقك ، بل الذي خلقك لغاية يعلمها ويريدها - سبحانه وتعالى - سيأتي الجواب واضحًا ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ

(٥٧) إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾

[الذاريات : ٥٦ - ٥٨]

وتدبروا معي هذه الآية الجميلة التي قل من فكر فيها منا ، قال الله - سبحانه وتعالى - ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴾ [الطلاق : ١٢] فهذه الآية جعلت معرفة الله - سبحانه تعالى - هي الغاية من خلق السماوات والأرض ، فالغاية

هي أن تعرف الله ، أن تعرف أسماء جلاله ، أن تعرف صفات كماله ، أن تعرف قدره ، أن تعرف عظمته ، أن تعرف أنك ما خلقت إلا لتوحده ، أنك ما خلقت إلا لتعبده ، أنك ما خلقت إلا لتخشاه ، إلا لترجوه ، إلا لتتوكل عليه ، إلا لتخلص العبادة له وحده بلا منازع أو شـريك ، ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾

[الذاريات : ٥٦]

فالإنسان وبكل أسف يسأل عن الغـاية

التي من أجلها خلق كل شيء في الكون ، مع أن كل شيء في الكون خلق من أجلك أنت أيها الإنسان .

فأنت تسأل لماذا خلقت السماوات ؟ لماذا خلقت الأرض ؟ لماذا شق الله البحار ؟ لماذا تجري الأنهار ؟ لماذا خلق الله الأزهار ؟ لماذا كذا ؟ لماذا كذا ؟ في الوقت الذي لا يسأل الإنسان عن سبب خلق نفسه هو ، وعن غاية خلقه ، لماذا خلقت أنا ؟ إن سألت :

الله ﷻ خلق الماء للأرض ، وخلق **الله** ﷻ

الأرض للإنبات وللحياة ، وخلق الله ﷻ النبات للحيوان وللإنسان ، وخلق الله ﷻ الحيوان للإنسان ، وخلق الله ﷻ الإنسان له وحده ، نعم أنت مخلوق لله وحده ، أنت مربوب لله وحده ، لا يجوز لك ألبتة أن تصرف العبادة لغير خالقك - سبحانه وتعالى - ، فالإنسان لله ، مخلوق لله ، ليفرد الله خالقه بالعبادة وحده بلا منازع أو شريك ، هذه العبادة لله وحده ، وهي الميثاق العظيم الذي أخذه الله على الخلق

قال تعالى : ﴿ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ [يس : ٦٠ - ٦١]، وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٧٢ - ١٧٣]

فلا عجب أن تكون العبادة هي الصيحة الأولى لكل نبي ، وهي التوجيه الأول لكل رسول ، فما من نبي ولا رسول بُعث في قومه إلا ودعا قومه أول ما دعاهم إلى عبادة الله وحده ﴿ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ ، هذه دعوة آدم ، وهذه دعوة إبراهيم وموسى وعيسى وهذه دعوة محمد ﷺ .

قال **الله** ﷻ ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّـٰغُوتَ ﴾

قال الله ﷻ: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥]

قال الله ﷻ: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٩٢]

فالعبادة أمر الله بها كل الخلق وأمر بها سيد الخلق ﷺ قال الله تعالى: ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴾ [الحجر: ٩٩]، واليقين هنا هو الموت.

فالتكليف بالعبادة لازم للنبي ﷺ، ولكل بشر على وجه الأرض حتى يلحق بربه تبارك وتعالى ، بل وبين **الله** ﷻ أن المسيح عيسى ابن مريم الذي عبده النصارى وجعلوه إلهًا من دون الله ، بين عبوديته له - سبحانه وتعالى - فقال جَلَّ وَعَلَا : ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴾

[النساء : ١٧٢]

وعبادة الله هي الغاية التي من أجلها خلق الله الخلق .

وأكتفي بهذا القدر ، وصلِّ اللهم وسلم وبارك على محمد وآله وصحبه وسلم .

اللهم استرنا ولا تفضحنا ، وأكرمنا ولا تهنا ، وكن لنا ولا تكن علينا ، اللهم لا تدع لأحد منا في هذا المقام الكريم ذنبًا إلَّا غفرته ولا مريضًا إلَّا شفيته ولا دينًا إلَّا قضيته ، ولا همًّا إلَّا فَرَّجْته ، ولاميتًا إلَّا

رحمته ، ولا عاصيًا إلَّا هديته ، ولا طائعًا إلا سددته ، ولا حاجة هي لك رضًا ولنا فيها صلاح إلَّا قضيتها يا رب العالمين .

اللهم اجعل جمعنا هذا جمعًا مرحومًا ، وتفرقنَا من بعده تفرقًا معصومًا ولا تجعل فينا ولا منا ولا معنا شقيا أو محرومًا .

اللهم اهدنا واهدِ بنا واجعلنا سببا لمن اهتدى .